Cultural Pattern in the novel" The daughter of Tigirs"by Mohsen Al-Ramli

Hassanien Ali Hadi

Assistant Teacher / Dhi Qar Education Directorate, Ministry of Edu
Iraq
*Correspondence author: aaaam113355@gmail.com

ABSTRACT

. In this research, it has been highlighted on the different cultural patterns in the novel (the daughter of Tigris) by the well-known Iraqi novelist (Mohsen Al-Ramli), by applying the vocabulary and approach of cultural criticism, to clarify the apparent and implicit meanings in the novel, which the novelist expressed throught it about his cultural, political and social vision about Iraq during the occupation period, especially the issue of Iraqi women and their suffering .

Keywords: cultural patterns, cultural criticism, daughter of the Tigris, Mohsen Al-Ramli.

الأنساق الثقافية في رواية "بنت دجلة" لمحسن الرملي

م.م حسنين علي هادي
مديرية تربية ذي قار / وزراة التربية العراقية

ملخص البحث:

نحاول في ثنايا هذا البحث إلقاء الضوء على الأنساق الثقافية المختلفة في رواية(بنت دجلة) للروائي العراقي المعروف(محسن الرملي), عن طريق تطبيق مفردات ومنهج النقد الثقافي, لإستجلاء المعاني الظاهرة والمضمرة في الرواية, التي عن طريقها عبَّر الروائي عن رؤيته الثقافية والسياسية والاجتماعية عن العراق خلال فترة الاحتلال, لا سيما قضية المرأة العراقية ومعاناتها.

الكلمات المفتاحية: الأنساق الثقافية, النقد الثقافي, بنت دجلة, محسن الرملي.

المُقدِّمَة

لكل مجتمع ثقافة وجوانب تتعلق بحضارته وتراثه, مُستلهَمة من بيئته, يسعى فيها الروائي للتعبير عن ذاته, متحدثًا عن همومه ومشكلاته بوساطة شخصياته, ومستعينًا بما يملك من ثقافة ومعرفة, فنلاحظ أنَّ النقد الثقافي قد حقق شهرة واسعة في الدراسات الأدبية المعاصرة, وقدرة كبيرة في الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة والمعلنة داخل العمل الأدبي؛ إذ يذهب الكاتب إلى إضفاء بصمته وهو يحاول الكشف عن هذه الظواهر.

وقد كان لتطور الرواية وخوضها عوالم تجريبية جديدة الدور الكبير في تطور الأنساق وتعددها, فنرى بأنَّ الشخصية الروائية باتتْ قادرة على سبر أغوار النفس ومكنوناتها, والتعبير عن همومها ومشاعرها وأحاسيسها, فضلًا عن تناولها للقضايا المُلحَّة التي يعايشها المجتمع.

ارتأيت في بحثي هذا أنْ أتناول الأنساق الثقافية وعلاقتها بالنقد الثقافي, لما للأخير من دورٍ واضحٍ في كشف الأنساق, وجعلها قيمًا ذات طابع ثقافي, فضلًا عن رصده لنشاط الإنسان وحراكه وفاعليته فيما يبدع بوساطة مواقف فكرية ودوافع عقَلية. وخصصنا الحديث عما سبق في رواية (بنت دجلة) للروائي العراقي " محسن الرملي"

النقد الثقافي وعلاقته بالانساق الثقافية:

يرتبط النقد الثقافي كمصلحٍ بمجموعة من المفاهيم, مما يجعله مثارًا للجدل, ومن هذه المفاهيم: مفهوم الدراسات الثقافية, والتحليل الثقافي, وثقافة المجتمع. وإذا كان النقد الأدبي نقدًا جماليًا متصورًا يشتغل بالفكر الإنساني لمبدعه, فالنقد الثقافي يشتغل على تفكيك النصوص وتأويلها وإعادة تشكيلها. كما يتعامل مع النصوص بوصفها علامة ثقافية قبل أنْ تكون جمالية. وتُعدُّ الأنساق الثقافية الركيزة التي يستند إليها النقد الثقافي, وبما أنَّ الأنساق الثقافية مختلفة ومتعددة في الرواية, لذا يمكن تعريفها بأنها:" تركيبة اجتماعية منغرسة في أعماق الخطاب تُعَبِّ عن الصورة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما, يصعب اكتشافها بالقراءة السطحية كونها تختبىء خلف السطور, والنسق الثقافي هو عنوان المجتمع وهويته"[1].

وأخذ النقد الثقافي بالتطور والانتشار بشكل كبير في النصف الثاني من القرن العشرين, فالثقافة" تجعل المرء باستطاعته القدرة على الإبداع والابتكار والخلق لذا فالنقد الثقافي يكشف العيوب النسقية الموجودة في الثقافة. وهو لايفرق بين فن النخبة المختارة والآخر الجماهيري, ولا بين الآداب الرفيعة والآداب الشعبية"[2].

إنَّ الدراسات الثقافية الحديثة كسرت مركزية النص ولم تتعامل معه على أنَّه نص مجرد, أو إلى الأثر الاجتماعي الذي ينتجه ذلك النص, بل ذهبت إلى مايتحقق ومايُكشف من أنظمة ثقافية خام فيه, مثل الأنظمة السردية, وأنساق التمثيل, والأشكاليات الإيديولوجية, وأشياء أخرى تعتمد على نوعية النص[3].

ويجب أنْ يتسلح الناقد بثقافة عالية؛ لأنَّه بالنتيجة يشارك بالاهتمامات والمواقف التي يقف عندها علماء التاريخ والاجتماع, ونقاد الأدب باختلاف مناهجهم, ونقاد الأسطورة, ونقاد مابعد الحداثة... إلخ. ويكون الناقد غير راض عما يقرئه أو يتعامل معه, وهذا مايراه المفسر الألماني "**تيودور ادورنو**", في مقال له عام 1949م, تحت عنوان "النقد الثقافي والمجتمع", فهو يرفض الصورة النمطية للنقد البرجوازي, والتي كان ينتهجها الاوربيون لاعتلاء السلطة والحكم, وهي في حقيقتها بعيدة عن روح النقد الحقيقي[4]. ويؤكد "أدورنو" بأن الناقد يجب أن يكون جزءًا مما ينتقده, فيقول" الناقد غير راضٍ عن الحضارة التي يدين لها بعدم ارتياحه، إنَّه يحدث كما لو كان ينتمي إلى طبيعة لم يصبها الدنس وإلى مرحلة تاريخية أرقى. مع انَّه لا ينتمي إلى الجوهر الذي يتخيل نفسه متجاوزًا له"[5].

إنَّ للرواية مرجعيات عدة, وإذا قُرأت وفقًا للمرجعيات التي ينتمي إليها الروائي, فإنَّ هذا يساعد في الكشف عن التمثلات والرؤى عند الأنا والآخر" فالتصور النقدي الذي لا يهمل السياقات الخارجية في فهم الرواية من شأنه أن يرهف الإنصات إلى النصوص الثقافية المتخللة للنص الأدبي وسياقاتها, وأن يكشف عن اشتغالاتها في تشكيل الصور والتمثيلات حول الواقع والأنا... فهذا التصور ينزل الاشتغال على الانتاجات السردية والثقافية في بعديها الفردي والجماعي في حيز التحليل النفسي والانثربولوجي؛ لأنهما معنيان بالتفكير في الإنسان ككائن سردي, وفي قدرته على انتاج الذاكرة والثقافة في سيرورات من التذويب"[6].

إذًا يمكننا معرفة وفهم أنَّ أي مقاربة ثقافية لأي نسق في الرواية يجعله ينفتح على خلفيات فكرية ومعرفية للجماعات الإنسانية.

النسق والثقافة:

يُعدُّ مصطلح النسق من المصطلحات التي تضاربت حولها الآراء, وذهبت ثلة من النقاد إلى أنَّ سبب الاختلاف في تعريفه الاصطلاحي يعود إلى التشابه الكبير مع مصطلح البنية, الذي ظل يلتبسه بعض الغموض؛ لاستعماله في مجالات عدّة, وهذا ماجعل البعض يرى بأنَّ البنية ليست تعبيرًا عن الكل, بل هي تعبير عن نسق أو نظام يمكن الوصول إلى معرفته[7]. لذا, يمكن يمكن عدُّ النسق نظامًا بنيويًا منتظمًا يصبح مفهومه أشمل وأعم من البنية؛ لأنَّ" النسق البنيوي مظهر من مظاهر النسق العام, فقد يكون هذا النسق مغلقًا كما تطرحه البنيوية الصورية وقد يكون مفتوحًا كما هو الشأن بالنسبة للمناهج النقدية الأخرى مثل السيميائيات والتأويلات المعاصرة, وتبعًا للتصورات التي تقدمها القراءة للنسق تتحدد طبيعته"[8].

والنسق لغة كما ورد في معجم لسان العرب:" النسق من كل شيء: ماكان على طريق نظام واحد, عام في الأشياء, وقد نسقه تنسيقًا, ويخفف"[9]. وجاء في كتاب العين للخليل:" النسق من كل شيء, ما كان على نظام واحد عام في الأشياء ونسقته تنسيقًا. نقول انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسقت"[10]. ومن هنا يمكن القول بأنَّ أجزاء النسق مترابطة ومتماسكة مشكلة تكافؤًا وظيفيًا عن طريق المنطق الرابط بين أجزائها.

أمَّا مفهوم النسق المنطقي, فهو" مجموعة من القضايا المرتبة في نظام معين, بعضها مقدمات لا يبرهن عليها في النسق ذاته, والبعض الآخر يكون نتائج مستنبطة من هذه المقدمات"[11]. وهذا يجعلنا نعتقد بأن مفهوم النسق يحيلنا إلى فكرة شبهه بالبناء والترتيب وفق نظام معين.

وأمَّا مصطلح " الثقافة" فيمكن تعريفه كما ورد في لسان العرب, بالقول:" ثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقًا, وثقف الشيء حذقه, ... والثقاف هو ماتستوي فيه الرماح". يمكن معرفة ما تعنيه الثقافة من التعريف, بأنها الفهم الحسن والجيد للأمور مع تقويمها وتهذيبها.

وأمَّا في الاصطلاح, فقد تعددت التعريفات لمصطلح" الثقافة", فاللفظ الإفرنجي يأتي مشتقًا من الفعل(Colo, Golere,Golui), وتعني من يحرث الأرض ويرعاها, والثقافة: هي العالم مستأنسًا ومشذبًا, ويقول عنها شيشرون:" إنَّها الطبيعة الثانية وهي لا تعني فقط الزراعة وإنَّما تعني أيضًا تربية الإنسان لذاته أمّا الثقافة الرفيعة فهي الآداب والعلوم وبعد ذلك العبادة , وهي مراعاة ميول الآلهة"[12].

وأمَّا صاحب المعجم الفلسفي مراد وهبة, فيقول عن الثقافة:" هي في أصلها أيديولوجيا, أي رؤية مستقبلية, أي وضع قادم, وإذا تموضع الوضع القادم فإنَّه يتحول إلى وضع قائم. وهذا الوضع القائم هو الثقافة. ولهذا فالثقافة هي تموضع لوضع قادم"[13].

ويمكننا القول بعد ذلك بأنَّ الثقافة: هي امتلاك الفرد لمجموعة من القدرات المادية والفكرية وإلمامه بإخلاقيات ومعتقدات المجتمع وأعرافه وقوانينه. والثقافة هي قبل كل شيء ممارسة للنشاط الإنساني مفردا كان أو جماعة, الذي يتحول بعد ذلك إلى نتاج معرفي وفلسفي مميز يشكِّل مفاهيمنا ومواقفنا ويعبّر عن ذواتنا.

الأنساق الثقافية:

انتقلت الدراسات النقدية الحديثة من قراءة النص الأبداعي إلى مرحلة جديدة, الا وهي قراءة الأنساق الثقافية, لا سيما بعد إعلان النقد الثقافي بديلًا عن مشروع النقد الأدبي. ودأب العمل على تحديد ورصد مفهوم النسق الثقافي وفقًا لآليات معينة؛ لمعرفة مدى فاعليته؛ ولأنَّه متداخل مع مصطلحات عدِّة, كالسياق والوظيفة والبنية. ويرى السيميائي الروسي" يوري لوتمان" (1922م–1991م) بأنَّ النسق يكون:" دالًا على تاريخ الثقافة والأدب والفكر الاجتماعي بصورة عامة"[14]. إذًا يكون النسق بمثابة مُخرجٍ ثقافيٍ يعتمد على الجماليات الثقافية التي تعمل كقناع تمرر عبره الأنساق بأمان.

وإذا أردنا الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في النصوص وجب الإتجاه إلى تأويل النص بوصفه بنية ثقافية, وممارسة سلطة توجيه الخطاب والهيمنة عليه. وبما أنَّ الأنساق هي بنى مضمرة داخل النص السردي, لذا فهي تختفي خلف مجموعة من النصوص الجمالية ذات الطابع الرسمي أو المحلي كاشفة لنا عن تراكمات مضمرة من تأريخ أو لغة فئة معينة, كما توضح لنا صفة التسلط والهيمنة على المجتمع وتوجيه ثقافته وفقًا لمنطق القوة.

تقوم رواية بنت دجلة– موضوع البحث– للكاتب العراقي محسن الرملي, على الخوض العميق في موضوعات الحب والظلم والموت والاضطهاد, وعلى الرغم من موضوعاتها ذات الطابع المحلي المستقاة من الواقع العراقي, إلاَّ أنَّ موضوعاتها عالمية, لذا ترصد الرواية مجموعة التحولات ومخلفات الدكتاتورية الدموية تجاه أفراد الشعب العراقي لا سيما المرأة, فضلا عن مخلَّفات الاحتلال الأمريكي, وماتبعه من إنهيار في منظومة الحياة الفكرية والاجتماعية داخل المجتمع.

جاءت الدراسة لتعرض مختلف الأنساق الثقافية المضمرة والظاهرة التي تزخر بها رواية (بنت دجلة), نظرًا لأنَّ الرواية تختزن في طياتها نصونصًا مختلفة وطويلة لا يمكن الإلمام بها مجتمعة, لذا ستقتصر الدراسة على تبسيط وتحليل مايمكن من موضوعات, اعتمادًا على الثنائيات المتضادة في قراءة الوحدات الثقافية المتعددة والمختلفة. ويمكن تقسيم الأنساق الواردة في الرواية كالآتي:

1- نسق اللغة:

تُعدُّ الرواية حديقة تحوي مجموعة من اللغات واللهجات التي تساعد على تنوع القراءات, وعلى الرغم من أنَّ اللغة الفصحى هي الطاغية على الرواية, إلاَّ أنَّ محسن الرملي استطاع توظيف التعدد اللغوي عن طريق التمازج بين اللغة العربية نفسها بوساطة تنوع اللهجات مرة, واللغة العربية وبعض الكلمات الإنكليزية مرة أخرى, مما أضفى على الرواية بعدًا سرديًا حداثويًا يحيل إلى تعدد الرؤى والقراءات.

ومن مظاهر توظيف اللغة في الرواية, توظيف اللغة الإنكليزية عن طريق العبارات التحذيرية التي كانت مكتوبة على السيارات الأميركية, ومن تلك العبارات:

"CAUCION:STAY100 METERS BACK OR YOY WILL SHOT"[15], التي تعني(إبقّ على بعد 100 متر أو سيطلق عليك), وقد جاءت باللغة الانكليزية كمثال على التعدد اللغوي, ولكنها كما هو واضح تحمل معنى عدائيًا وخطرًا واضحًا, في حين امتزجت باللغة العربية في موضع آخر لتحمل معنى آخر, وذلك عندما دخل الجنود الأميركان إلى قرية الشيخ طافر وكانوا نيامًا فاقتربت امرأة عجوز من أحد الجنود تحمل قطعة من الخبز مغطاة بزبدة, يقول الراوي:"ولكنه ما أن يرى وجه سيدة كبيرة, حانيا فوقه, ويسمع صوتها الهادى الذي لايفقه كلماته حتى تسترخي قبضتاه, بعضهم يواصل نومه, قائلا:" ثانكيو" وبعضهم يستيقظ تمامًا, يعتدل بجلسته, ثم يقولها " ثانكيو" "[16]. ظهر المزج اللغوي واضحا ولكن بوساطة كلمة (ثانكيو) (thank you), التي تعني شكرًا, لكن الكاتب قصد أن يكتبها باللغة العربية واللفظ الأنكليزي رغبة منه في رفض سياسة الاحتلال, وهذا في حد ذاته تعبير على شعور المواطنة الذي يحس به الكاتب وقد ترجمه على لسان الراوي العليم في الرواية.

كما كانت اللهجة العراقية حاضرة لا سيما في بعض المصطلحات التي تحض على التحبيب والتودد, فنلاحظ بأنَّ الشيخ يعكس طبيعته المرحة في أثناء حديثه مع قسمة حول نشيد وشعار عشيرته (الشخابيط) , فيقول:" النشيد حكايته حكاية, حتى أنني أحفظه, مثل سائر أبناء العشيرة ولطرافته وطرافة حكايته. شوفي يا بعد لحيتي. قال ذلك وترنم بلحن النشيد قليلا "دن دن دندن دان..." "[17]. تداخلت اللهجة العامية العراقية (شوفي يا بعد لحيتي) مع اللغة الفصحى رغبة من الكاتب في توظيف اللهجة العراقية للتعبير عن تطلعات الأفراد المنتمين إلى العشيرة والمجتمع ممتزجة بصيغة التودد والعاطفة.

ولم يكتفِ الكاتب بهذا وإنَّما تجاوز باللغة العربية إلى استعمال معجم اللغة رغبة منه في التنويع وشدِّ انتباه القارئ, فشخصية " براء" الكاتب المثقف من جهة ولكنه مُشرَّد ممزق الملابس ذو رائحة كريهة من جهة اخرى, عكس ما آل إليه المثقف العراقي خلال فترة الاحتلال وظهر هذا على لسان الراوي؛ إذ يقول براء:" أنا أسمي الناس التقليديين المتشبثين بقراءة الكتب القديمة برؤية قديمة: (يراعيين), الذين مازالوا يسمون القلم: يراع, والقلب: فؤاد, والموت: ردى, والأسد: ليث, والتراب: ثرى... وما إلى ذلك. من المؤكد أن الشعر الوحيد الذي تعرفه ويعجبك, هو الشعر الكلاسيكي المنقرض منذ قرون"[18]. ركَّز الكاتب على لسان راويه على ذكر بعض الكلمات ومعانيها في المعجم اللغوي, وجعلها على لسان شخص مشرد في إشارة إلى ماآلتْ إليه حياة المثقفين في العراق.

2- نسق السياسة:

يُعدُّ العراق مركزًا للحركات والصراعات السياسية منذ أقدم العصور وظهرت هذه السمة بشكل واضح في روايات مابعد الحداثة لا سيما بعد الاحتلال الأميركي للعراق, ويقسم الحراك السياسي إلى نوعين: هما الحراك السياسي الخارجي المتمثل بسياسة المحتل, والآخر: السياسيون العراقيون الذين كانوا في الخارج بسبب تهجير وملاحقة النظام السابق والبعض منهم خدمتهم ظروف الاحتلال ليصيبوا الغنى ويتسنموا مناصب حساسة في الدولة. وقد ظهر كلا النوعين في الرواية بنسبة كبيرة.

يمكن ملاحظة الرؤية السياسية للشيخ طافر عندما التقى بصديقه الشيخ طارق الذي جاء مع قسمة للبحث عن جثة أبيها ابراهيم الذي قتله المتشددون, فاقترح عليه استغلال أوضاع البلد والديمقراطية الوليدة للحصول على مكاسب ومناصب. فيقول طافر معترضًا على صديقه المتدين طارق:" لا, لا, هذا يكفي ياصديقي, إننا نعيش اليوم فرصة تأريخية في زمن الديمقراطية, وباستطاعة من يشاء أن يفعل ما يشاء. ألا ترى كم من النكرات والرعاع, أصبحوا فجأة أثرياء, ورجال سلطة! وحتى الأجانب, ما جاؤوا من كل حدب وصوب إلاَّ لنهب ثرواتنا..., وإنما من أجل النفط, فليأخذوه, ويرموا لنا ببعض الفتافيت منه, ما دمنا أصلا, لم نحصل على شيء سوى العذاب من الأمس واليوم, ولن نحصل منه على شيء غدًا"[19]. يوضح الشيخ طافر الحالة السياسية التي يمر بها العراق بعد الاحتلال وأنه يجب استغلال الوضع القائم في تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب المادية والسياسية؛ لأنَّه بالمحصلة لم ولن يحصل الشعب على شيء من السياسين.

يواصل الشيخ طافر نصح صديقة شيخ الدين طارق, فيقول له:" أما اليوم فالبيدر بلا حارس ولا نظام, كهذا النهر, بإمكان أي أحد أن يغرف منه بقليل من الحركة والذكاء. فمثلًا, إننا في فترة الانتخابات, نبيع أصواتنا لمن يدفع أكثر, فما هي هذه الأصوات؟ إنها لا شيء على الأطلاق, ولم نكن نعرفها من قبل..., مانبيعه أشياء لا نلمسها ولا نعرفها, يسمونها أصواتًا, يقولون لي قل لعشيرتك, في يوم الانتخابات, أن يضعوا شخبطة, في الورقة التي فيها رسم كذا وأسماء فلان وفلان, مقابل مال وجاه ومناصب. فعليك أنت أن تفعل ذلك أيضًا يا طارق, سأعلمك هذه وأشياء أخرى تجعلك ترى بعينك, وتلمس بيدك, نعيم هذه الديمقراطية التي جلبوها لنا"[20]. لعل توظيف الروائي لهذا النمط السياسي الخاص

بالوضع العراقي بعد الاحتلال الأميركي, يوضح مدى فساد المنظومة السياسية بعد الاحتلال, وقد شغل مساحة كبيرة من أحداث الرواية, ليجعل القارئ متعايشًا مع أحداث سردية مصطبغة بألوان الواقع, وقد أجاد محسن الرملي في ذلك كونه عاصر وعايش الكثير من هذه الأحداث.

وعند وصول قسمة والشيخ طارق إلى بغداد ظهرت رغبتهما بتشكيل حزب سياسي فألتقيا بالسيد جلال الدين الذي ينتمي لأحد أحزاب السلطة وقريب من الشيخ طافر, وقد شجعهما ومولهما لتشكيل حزب خاص بهما, وخلال طرح رؤيته السياسية يظهر لهما رؤية ومصالح الدول الأخرى في العراق فيقول:" تحول العراق إلى مائدة مفتوحة لنهب الجميع... الأمريكان حلوا الجيش وتركوا الحدود مفتوحة, وجعلوا الحُكم بالمحاصصة, كل ثلاثة أشهر رئيس وزراء من طائفة أو عرق أو حزب, وكذلك بقية المؤسسات وكل يستعجل بأخذ مايستطيع أخذه... أما على صعيد الدول فكل دول الجوار, ودول أخرى كثيرة, ليست مجاورة للعراق, تسعى لأن تجعل منه حديقة خلفية لها"[21]. يمكن ملاحظة أحوال العراق بعد الاحتلال لا سيما علاقاته بدول العالم, إذ إنَّه صار مرتعًا لدول الجوار والدول الأجنبية الأخرى؛ نتيجة لحالة الإنفلات الأمني وضعف الحكومة المركزية التي كانت معينة من قبل الأمريكان.

لقد كان لحضور الأحداث السياسية حصة الأسد من الأحداث المكونة للرواية, لأنَّ الكاتب فيما يبدو أراد أن يشير إلى مواطن الضعف في الحكومات المتلاحقة, محاولا أن يحدث تغييرًا يصب في مصلحة البلد, وينتشله من واقعه المهترئ ويرفعه لمكانته التأريخية المستحقة.

3-نسق الدين:

كان للنسق الديني حضورًا لافتًا في الرواية, وكان ذو تأثير واسع في رسم شخصية الشيخ(طارق), إذ حاول استغلال معرفته الدينية والأدبية في مساعدة صديقه الشيخ طافر. وكان ذلك عندما أرادت مجموعة من القوات الأميركية الدخول إلى قرية الشيخ طافر وأراد الشيخ تعبئة أبناء العشيرة للمواجهة مع المحتل, ولم يقتنع بالعدد, عند ذلك قاطعهم الشيخ (طارق), مستشهدًا بقوله تعالى:" **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**"[22]. لقد ركز الروائي على إظهار الهوية الدينية في شخصية الشيخ طارق, فضلًاعن مقدرته الأدبية في إدارة الحوار, وهذه علامة ذات دلالة واضحة على التمسك بالهوية العربية الإسلامية في مواجهة الشدائد والمحن.

ونلاحظ أيضًا ظهور شخصية البطلة (قسمة) في الرواية عن طريق تصحيحها لبعض المفاهيم الذكورية, مستشهدة بقوله تعالى:" **وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ**"[23]. استشهدت قسمة بالنص القرآني معارضة الجنرال الأمريكي المسلم (آدم) الذي كان يطرح فكرة أنَّ الامريكان جاءوا لنشر روح الديمقراطية في العراق وقد جامله كل من الشيخين طافر وطارق واتفقا معه لكونه مسلمًا, فجاء رد قسمة مزلزلًا للجميع, فمنطقها وثقافتها أبهرت الجميع. أراد الكاتب إضفاء صفة الشخصية القوية والمثقفة دينيًا على قسمة وهذا ما أكده في أكثر من مناسبة في الرواية. فدعت قسمة إلى مقاتلة الفئة التي تبغي بغض النظر عن انتمائها. لقد طغى النسق الديني على شخصيتي طارق وزوجته قسمة بأكثر من مناسبة, ولكن كان الاختلاف واضحًا في رؤيتهما, فطارق كان مسالمًا ويفسر الدين على أنَّه دعوة للسلام والمهادنة, في حين فسرته قسمة بأنَّه سلاح ثوري في يد الفرد يقاوم به الغزاة.

4- نسق ثقافات المجتمع:

أ- نسق الحكايات:

زخرت الرواية بمجموعة من الحكايات التي كان لها دور في إضفاء صفة الواقعية على الرواية عن طريق مزج الحقيقي بالمتخيل من الأحداث التأريخية, وهذه سمة مميزة للروائي محسن الرملي, إذ يشعر القارئ بأنَّه أزاء أحداث حقيقية بالكامل.

نلاحظ اختيار الروائي لاسم عشيرة الشخابيط التي يترأسها الشيخ طافر هو اسم متخيل ولكن وفق نظام الحكاية أضفى عليه صفة الواقعية, وذلك عند انتهاء الاحتلال العثماني للعراق ومجيء الاحتلال البريطاني الذي راح يدون كل شيء متعلق بالاملاك والمواليد وحالات الزواج, فعندما سألت قسمة زوجها الشيخ طارق عن أصل تسمية عشيرة الشخابيط, أجابها بأن المؤسس الأول كان خادما لدى أحد العثمانيين, وصار فيما بعد أقطاعيا, يقول الراوي عن ذلك الشيخ:" لم يكن يعرف القراءة والكتابة وبعد ولادة ابنه البكر, أراد إدراج اسمه في سجلات المواليد في إحدى الدوائر الرسمية الجديدة, غير أنَّه خجل من أن يعرف الإنكليز وعموم الناس بأنه أُميّ. لذا شخبط بضعة خطوط فوضوية على ورقة أعطاها لأحد خدامه, مع وثيقته هو وهدايا غذائية ونقدية... حين رآها الموظف العراقي نهض غاضًبا وقال " ماهذه الشخبطة" فارتبك الخادم...

وضع كيس الهدايا على طاولة الموظف الذي فكر بكيفية تسجيل الاسم دون أن يقع في كارثة, ثم اهتدى إلى تسمية مارآه, مع الاحتفاظ بورقة الشيخ مرفقة في صفحة السجل نفسه, فكان الاسم: (شخبطة)"[24]. لقد كانت الحكاية مقنعة لدرجة امتزاج الواقع بالمتخيل فيها, وهذا ما أراد الكاتب الأكثار منه في الرواية.

ب- نسق العادات والتقاليد:

تعطينا الرواية صورة واضحة حول عادات وتقاليد عشيرة الشخابيط التي شكلت رابطًا سرديًا داخل الرواية, فمنحته سمة تخيلية أسهمت في تشكُل البعد الدلالي للنص. وذلك عندما اجتمع الشيخ طافر بصديقه طارق في المجلس الخاص بالعشيرة جاء أحد أبناء الشيخ طافر, وهمس لهما:" إنَّ العم الطباخ (رهيب) يسأل عن توزيع قلبي الثورين والخصى الأربع. وفق عادات الشخبطائيين, يتقاسم الضيف ومضيفه القلب والخصيتين, إذا كانت الذبيحة ثورًا واحدا, أما وأن التكريم مضاعف اليوم, فسوف تكون لكل شيخ خصية كاملة, وله أن يختار لمن تكون الثانية, وله نصف قلب, ولمن يكون النصف الثاني, فاختار طارق أن يكون نصف قلبه لقسمة, والخصية الثانية لابنها, فيما اختار طافر أن يتم تقسيم النصف الثاني من قلبه, بالتساوي بين زوجاته الثلاث, وأن تكون الخصية الثانية لابنه هذا"[25]. الحديث المتخيل عن العادات والتقاليد في الرواية يمنحها عنصر التشويق والواقعية, إذ يشعر القارئ بأنَّه أمام أحداث أقرب للواقع منها للخيال.

ج- الأغاني والأمثال الشعبية:

تظهر في ثنايا الرواية مجموعة من الأغاني والأمثال الشعبية التي كان لها دور جلي في رسم الهوية العراقية التي لطالما حرص الروائي على إبرازها؛ لأنها بالنتيجة هويته الضائعة في المهجر, فهو يقيم في أسبانيا منذ 1995م.

يقتص كل من قسمة وطارق بعض الوقت للترويح عن نفسيهما في مسيرة البحث عن جثة ابراهيم والد قسمة, في أثناء وجودهم في قرية الشيخ طافر, فتقول قسمة:" سنغديكم اليوم سمكًا. وردد رهيب بعدها, وهو يلقي بالشبكة إلى الماء: سنغديكم سمكًا سمكًا. وراح يغني:" يا صياد السمك. صد لي بُنيَّة/ قلبي بشبك صادوه, غصبًا عليَّ/ بين النخل والماء ياما قعدنا/ نتهامس النظرات ونشفي بعضنا"[26]. يمكن ملاحظة الطابع الغنائي الذي يدل على الحنين الواضح المتجلي في الأغنية وهو في حقيقته حنين الكاتب للوطن, وقد كان واضحا في كل مقطع من مقاطع الأغنية.

أما عن الأمثال الشعبية, فقد ظهرت بشكل مكثف في كثير من المقاطع السردية, كما أسهمت هذه الأمثال في رسم صورة الشخصيات في الرواية, ومن ذلك, اسم (قسمة) الذي لم ياتِ بشكل عفوي, فقصد إليه الكاتب قصدًا؛ إذ كان نتيجة لمثل شعبي معروف (كل شيء قسمة ونصيب), ويقول الراوي:" وما تمردها على أبيها, إلاَّ لأنها وجدت فيه صفة التسليم بالقدر, والاكتفاء بالصبر والاحتمال, إلى حد تسمية أصحابه له(إبراهيم قسمة), وبحكم جوابه الثابت على كل حادث وحديث:" كل شي قسمة ونصيب", بل وإلى الحد الذي أسماها هي قسمة, لشدة إيمانه بهذا الأمر وتطابقه مع شخصيته"[27]. يبدو واضحًا من النص أعلاه أنَّ صفة والد قسمة هي الإيمان بالقضاء والقدر في أغلب أمور حياته, لدرجة أن الجميع كان يدعوه بـ(ابراهيم قسمة) وهو بدوره أطلق هذه التسمية على ابنته(قسمة) التي كانت ترفض وضعها المزري الذي يجعلها في مرتبة أقل من أي رجل, وكان سببًا في رسم شخصية قسمة التي كانت تتمنى لو أنَّها ذكر, فكانت تعارض كل مايميز الرجال ويفضلهم على النساء.

لقد أظهرت هذه الأمثال الهوية العراقية الشعبية التي كانت سببًا في رسم شخصيات الرواية, وسببًا في التعريف بالثقافة المحلية, فضلًا عن الثقافة المتجذرة في ذات الكاتب, وقد ظهرت في أكثر من موضع في الرواية, فنجد على سبيل المثال:" جعجعة بلا طحين"[28], " كلشي وكلاشي"[29], و" إذا طابت النفوس غنت"[30],...إلخ.

5- نسق المرأة:

يُعدُّ هذا النسق مهيمنًا على كافة الأنساق الأخرى, وقد اتخذ أشكالًا عدَّة, منها:

أ- المرأة المغتصبة:

تُعدُّ بطلة الرواية قسمة إنموذجًا للمرأة العراقية التي عانت الكثير من الصعاب في مواجهة التقلبات السياسية والاجتماعية في المجتمع العراقي, وقد ركز الكاتب على شخصيتها كثيرًا في أثناء سير الأحداث السردية, وأكثر من الأحداث التي تصب في هذا الإتجاه.

ولعل خير مثال على ذلك قول الراوي في الصفحات الأولى:" فيما كانت هي تكمل تعبيرها في قرارتها قائلة بأنَّها ستأكل هذا العراق الذي يأكل أبناءه, الذي أكل والدها وزوجها وطفولتها ومستقبلها, أكل كل أحلامها... كُثرٌ ينهشونه الآن, بعد أن انتهى عهد الرئيس الواحد الناهش

الأوحد, الذي أغتصبها, ولا تعرف حتى الآن, ولا تريد أن تعرف, فيما أذا كان طفلها هذا, ثمرة لذلك الاغتصاب, أم من زوجها الذي تم إعدامه, بعد اشتراكه في محاولة انقلابية"[31]. لقد أظهر الروائي محسن الرملي معاناة المرأة في ظل حكم السلطة الدكتاتورية والأحداث السياسية التي كانت تعصف بالعراق, وقد صور المرأة بوصفها كيانًا جسديًا شهوانيًا لقضاء حاجة الرجل, وقد حاول التعبير عن ألم قسمة في الرواية بصورة مجازية, وبأنَّها تتمنى لو تأكل العراق كله, تعبيرًا عن شدة الألم.

ب- المرأة المضطهدة والعنف الأسري:

لقد أعطى الروائي مساحة كبيرة للمرأة في روايته كونها تتعرض للانتهاك الصارخ والمستمر في خضم الأحداث السياسية والاجتماعية في العراق, وقد صورها في الرواية كامرأة مضطهدة مستعبدة لأبعد الحدود, فيقول الراوي نقلًا عن قسمة وهي تتحدث عن ماضيها لزوجها الشيخ طارق:" روت له كيف أنها كانت تهرب من ابن عمها, الذي زوجوها إياه عنوة, وكيف كان والدها يسحقها ضربًا, ويعيدها إليه محمولة في بطانية... وكيف تحتمل عذاباته. وتعاود الهرب, ووالدها يعاود سحقها... إلى أن انجبت, وتركت رضيعتها لابن عمها, بعد أسبوع من ولادتها, وهربت, فأعادها إليها وطلقها, لأنَّه لم يعد يحتمل هذا الخزي"[32]. ضعف القانون, وقوة السلطة الأبوية, أدى إلى عدم التوازن بين الرجل والمرأة (العنف), فهو اختلال في ميزان القوى بينهما, ويشير إلى تسلط واضطهاد الرجل لها بهدف قهر إرادتها وإذلالها, مما يمثل انتهاكًا صارخًا لحقوق المرأة[33], لا سيما وأنَّ العراق يعيش حالة من الصراعات الداخلية التي أثرت على نسيجه الاجتماعي فنلاحظ بأن قسمة في الرواية قد تعرضت لشتى أنواع العنف والإزدراء, فأراد الكاتب أن يعطينا صورة متكاملة عن الواقع المعيشي للمرأة العراقية.

ج- المرأة المتحدّية والجريئة:

لقد أكد الروائي محسن الرملي مسألة التحدي والجرأة عند قسمة في الرواية, ليرسم للقارئ صورة مشرقة مفعمة عن المرأة العراقية وقدراتها في مواجهة الصعاب مهما اشتدت, وهذا مايمكن أن نلاحظه من عنوان الرواية(بنت دجلة), ولكون قسمة هي الشخصية المحورية في الرواية, يقول الراوي:" بعد أن أتمت قسمة إطعام طفلها وتنويمه, في الغرفة التي خصصت لها في الطابق الثاني, استطاعت أن تقنع زوجتي طافر الثانية والثالثة, وبعض بناته, بالإتحاد معها في مغامرة الذهاب إلى صالة الرجال, رغم محاولة الزوجة الكبيرة ثنيهن عن ذلك, لأنه سيكون سابقة خطيرة, لا تُحمد عواقبها وعقوبتها, فسلوك كهذا لم يحدث من قبل أبدًا في تاريخ عشيرة الشخابيط الطويل"[34]. إنَّ تخطيط قسمة لمثل هذا الموقف, يعد خروجًا عن الأعراف والتقاليد التي تحكم مجتمعا عشائريا, وقد سعى الروائي لإظهار هذه الشخصية على أنها تتحدى جميع ماهو متعارف عليه, رغبة منه في محاولة إنصاف المرأة من الجور والحيف الذي لحق بها, فكانت قسمة محور الأحداث, واستطاعت شد القارئ لإكمال قراءة الرواية كاملة؛ لأنَّها لا تخلو من مفاجآت جديدة طيلة أحداث الرواية.

ولم يكتفِ الروائي بذلك, بل كان أكثر طموحًا, فأدخل قسمة معترك السياسة, فبعد أنْ برَّر الجنرال آدم الحوادث العرضية التي ترافق تقدم الأميركان في الأراضي العراقية, ردَّتْ عليه قسمة:"بالأصل, إنَّ غزوكم لبلادنا واحتلالها هو خطأ قاتل, لذا من الطبيعي أن ماسينطوي عليه من أجزاء وتفاصيل هي أخطاء لا حصر لها, والغريب أنكم لا تخجلون من تسميتكم لقتلكم للناس بـ" نيران صديقة" وبـ" خطأ" كعادتكم في عدم تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية"[35]. إنَّ ترقية الكاتب لقسمة وجعلها محاورة جيدة للجنرال الأميركي في مجتمع ذكوري, جعل منها شخصية قوية وجريئة, وأعطانا فكرة بأنَّه يمكن للمرأة العراقية أن تخوض غمار التحديات في المجالات كافة لو أُتيحت لها الفرصة.

وقد ظهرت إمكانات قسمة بشكل كبير في الرواية, ومنها تحدي الشيخ طافر نفسه في نقاش حاد, مفاده بأن الشيخ طافر يرى أنَّ لكل جنس واجباته وحقوقه التي يستحقها ولا يحق للمرأة التدخل في شؤون لا تخصها, يقول الراوي:" كانت محاورتها مع الشيخ طافر طويلة الردود, واضحة, حماسية, منفعلة, ومستفزة, تكاد الكلمات تخرج من فمها كالصفعات. ومن بين ما قالته, أنَّها ترفض منه هذا الحديث الذكوري الرجعي, وبأن القضايا المتعلقة بالوطن والكرامة تخص الجميع, رجالا ونساء, كبارا وصغارا, بل وحتى أبقاره وحميره... لأن النتائج تخص الجميع. إنَّها مثل حق الحياة ومثل معضلة الموت, لاتفرق بين ذكر وأنثى, سواء أكان صغيرا أم كبيرًا"[36].

ظهر نمط التحدي واضحًا في كلام قسمة, فبمجرد تحديها للشيخ طافر الذي يمتلك الجاه والمال والسلطة, هو بحد ذاته جرأة من قبلها, فالسيادة السلطوية للشيخ طافر لم تخفها أو تثنها عما تريد التحدث به. لذا فالراوي أعطاها الدور القوي والمحوري عن طريق التأثير في كل من يلتقي أو يتحدث معها.

الخاتمة:

بعد خوضنا في الأنساق الثقافية في رواية (بنت دجلة) للكاتب العراقي المشهور(محسن الرملي), وبعد أن عرفنا بأن النقد الثقافي هو نقد جماهيري شعبي وليس نقدًا خاصًا بالنخبة, توصلنا في نهاية بحثنا هذا إلى مجموعة من النتائج, يمكن إجمالها بما يأتي:

1- أحاطت رواية (بنت دجلة) بالأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية التي رفقت فترة الاحتلال الامريكي للعراق.

2- كان للرواية سمة خاصة مميزة لها, عن طريق كشف التفاوت الكبير بين منطقي الذكورة والأنوثة.

3- التشابه والتطابق التام بين عنوان الرواية(بنت دجلة) وشخصية البطلة(قسمة), التي عانت وتحدت وقاومت كل ماهو متعارف عليه في المجتمع من عادات معادية للمرأة.

4- كشف الروائي عن أنساقٍ مضمرة تبدو في الظاهر معاناة نفسية لبطلة الرواية.

5- تعرفنا عن طريق تبني النقد الثقافي على مجموعة من العادات والتقاليد السائدة في المجتمع العراقي, وما لها من أثر في مجابهة التحديات التي عانت منها شخصيات الرواية.

6- التعمق في تحليل الأنساق الثقافية, وخاصة السياسية منها كشف لنا هشاشة النظام السياسي وفساده, خلال فترة الاحتلال, فالجميع يسعى لجني أكبر قدر ممكن من المكاسب الشخصية, على حساب بؤوس وفقر الشعب.

7- تسري الأعراف العشائرية البالية على المرأة دون الرجل, مما ولد عند المرأة العراقية (قسمة) دافعًا للتمرد عليه وتحديه, لأنَّها كانت الضحية الأولى لهذه الأعراف والتقاليد.

8- الثقافة والتعليم ليست مقصورة على الرجل, فذكر الروائي أكثر من مرة قدرة (قسمة) على المحاججة والاستشهاد بالآيات القرآنية, وغيرها من الشواهد التي تمنح المرأة الندِيَّة أو الأفضلية.

الهوامش:

[1] – ثقافة النص, قراءة في السرد اليمني المعاصر, سماح الفران, شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع, عمان– الأردن, ط1, 1436هـ – 2016م: 17.

[2] – رؤية في النقد الثقافي, م.د. حمزة عبيس الجنابي, مقال, كلية المستقبل الجامعة, 2022/3/5, على الموقع الالكتروني: https://uomus.edu.iq/DefaultDep.aspx

[3] – ينظر: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية, عبدالله الغذامي, المركز الثقافي العربي, لبنان – بيروت, ط3, 2005: 17.

[4] – ينظر: الموسوعة الأدبية، فيصل الأحمر, نبيل دادوة, دار المعرفة, الجزائر, ط1, 2009م: 133.

[5] – نقلا عن تجليات الأنساق الثقافية المضمرة في رواية" تشرفت برحيلك" لرشام فيروز", ثنية معلوم , مذكرة لنيل شهادة الماستر, جامعة مولود معمري– تيزي وزو, كلية الآداب واللغات,قسم اللغة العربية وادابها, 2018– 2019م: 6.

[6] – الرواية العربية واسئلة ما بعد الاستعمار, أدريس الخضراوي, رؤية للنشر والتوزيع, القاهرة, ط1, 2012م : 28 – 29 .

[7] – ينظر: مشكلة البنية, زكرياء ابراهيم, دار مصر للطباعة, الإسكندرية, 1990م: 8.

[8] – القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة, أحمد يوسف, الدار العربية للعلوم – ناشرون, منشورات دار الاختلاف, الجزائر:116.

[9] – لسان العرب، ابن منظور, دار صادر للطباعة والنشر، ط 5 , بيروت، 2005، ج 10: 352– 353.

[10] – معجم العين, الخليل بن احمد الفراهيدي, ت: عبد الحميد هنداوي, دار الكتب العلمية, بيروت, ج4, ط1, 2003م:218.

[11] – المعجم الفلسفي, مراد وهبة, دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع, القاهرة, ط5, 20007م: 645.

[12] – المصدر نفسه: 229.

[13] – المصدر نفسه: 229.

[14] – السرد العربي القديم– الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل, ضياء الكعبي, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, ط1, 2005م : 22.

[15] – رواية بنت دجلة, محسن الرملي, دار المدى للاعلام والثقافة والفنون, ط1, 2020 م: 9.

[16] – الرواية : 37.

[17] – المصدر نفسه: 118.

[18] – المصدر نفسه:142.

[19] – المصدر نفسه: 23.

[20] – المصدر نفسه: 67.

[21] – المصدر نفسه:91.

[22] – االمصدر نفسه:35.

[23] – المصدر نفسه:45.

[24] – المصدر نفسه:12.

[25] المصدر نفسه: 21.

[26] – المصدر نفسه: 66.

[27] – المصدر نفسه: 49.

[28] – المصدر نفسه:25.

[29] – المصدر نفسه:70.

[30] – المصدر نفسه: 74.

[31] – المصدر نفسه:16.

[32] – المصدر نفسه: 174.

[33] – ينظر: سيسيولوجيا العنف والإرهاب, إبراهيم الحيدري, بيروت– لبنان, دار الساقي للنشر, ط1, 2015م: 111.

[34] – الرواية: 43.

[35] – المصدر نفسه: 44.

[36] – المصدر نفسه: 50.

قائمة المصادر والمراجع:

– رواية بنت دجلة, محسن الرملي, دار المدى للاعلام والثقافة والفنون, ط1, 2020 م.
– تجليات الأنساق الثقافية المضمرة في رواية" تشرفت برحيلك" لرشام فيروز", ثنية معلوم, مذكرة لنيل شهادة الماستر, جامعة مولود معمري– تيزي وزو, كلية الآداب واللغات, قسم اللغة العربية وادابها, 2018– 2019م.
– ثقافة النص, قراءة في السرد اليمني المعاصر, سماح الفران, شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع, عمان– الأردن, ط1, 1436هـ – 2016م.
– رؤية في النقد الثقافي, م.د. حمزة عبيس الجنابي, مقال, كلية المستقبل الجامعة, 2022/3/5, على الموقع الالكتروني: https://uomus.edu.iq/DefaultDep.aspx
– الرواية العربية واسئلة ما بعد الاستعمار, أدريس الخضراوي, رؤية للنشر والتوزيع, القاهرة, ط1, 2012م .
– السرد العربي القديم– الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل, ضياء الكعبي, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, ط1, 2005م .
– سيسيولوجيا العنف والإرهاب, إبراهيم الحيدري, بيروت– لبنان, دار الساقي للنشر, ط1, 2015م.
– القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة, أحمد يوسف, الدار العربية للعلوم – ناشرون, منشورات دار الاختلاف, الجزائر.
– معجم العين, الخليل بن احمد الفراهيدي, ت: عبد الحميد هنداوي, دار الكتب العلمية, بيروت, ج4, ط1, 2003م.
– المعجم الفلسفي, مراد وهبة, دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع, القاهرة, ط5, 20007م.
– لسان العرب، ابن منظور, دار صادر للطباعة والنشر، ط 5 , بيروت، 2005، ج 10.
– مشكلة البنية, زكرياء ابراهيم, دار مصر للطباعة, الإسكندرية, 1990م.
– الموسوعة الأدبية، فيصل الأحمر, نبيل دادوة, دار المعرفة, الجزائر, ط1, 2009م.
– النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية, عبدالله الغذامي, المركز الثقافي العربي, لبنان – بيروت, ط3, 2005م.